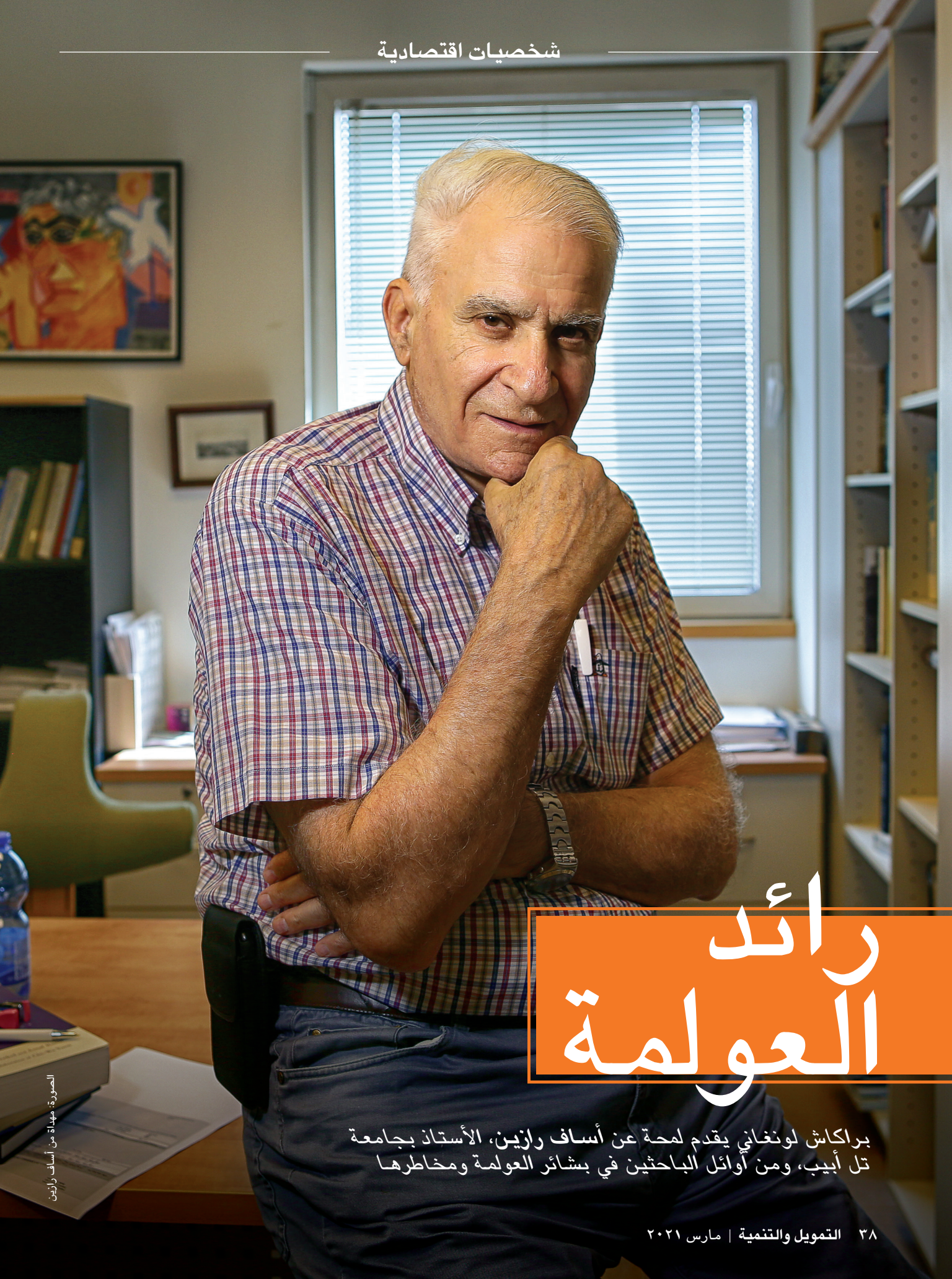

رائد العولمة

براكاش لونغاني يقدم لمحة عن **أساف رازين**، الأستاذ بجامعة تل أبيب، ومن أوائل الباحثين في بشائر العولمة ومخاطرها

الصورة: مهداة من أساف رازين

في عام ١٩٥٨، نجا أساف رازين ذو السبعة عشر عاما من إصابة كادت أن تودي بحياته جراء تعرضه لنيران صديقة أثناء فترة تجنيده الإلزامي في الجيش الإسرائيلي. وقضى عاما كاملا في المستشفى تأكد له خلاله أن العمل الشاق في حقول كيبوتس شمير الواقعة على منحدرات مرتفعات الغولان حيث ولد لم يعد خيارا ممكنا. وبدلا من ذلك، تحول اهتمامه كما كتب في السابق إلى «الفرص المميزة التي يتيحها النظام العالمي الحديث للكثيرين»، حيث أتم دراسته العليا في جامعة شيكاغو ليبدأ بعدها مسيرة مهنية لامعة كأحد رواد التعريف بمزايا العولمة وكيفية تحقيق الاستفادة القصوى منها في مختلف البلدان. وتعد جامعة تل أبيب مقر عمله الثابت، وهو «من أكثر الزوار المرحب بهم» في مختلف المؤسسات حول العالم، كما يقول لارس سفينسون من كلية ستوكهولم للاقتصاد. وفي عام ٢٠١٧، حصل رازين على جائزة العلم والفن والثقافة، وهي أرفع جائزة تمنحها إسرائيل «للتميز في الإنجازات الأكاديمية والمهنية ذات التأثير الواسع التي تقدم إسهامات مهمة للمجتمع».

ويقول رازين «تحولت إصابتي المؤسفة إلى حدث ساهم في تغيير مساري». وهو ما يعكس سمة «مميزة لأساف» كما يقول أصدقاؤه وأفراد عائلته، ألا وهي عدم الركون إلى الواقع المؤلم والمضي بإصرار نحو تحمل المسؤوليات. وسادت المبادئ الماركسية في مستوطنته — حيث حرص والده، وهو أحد مؤسسي المستوطنة، على زيارة قبر كارل ماركس أثناء تواجده في لندن. وعقب إصابته، اقترح كبار المستوطنة أن أفضل ما يمكنه القيام به لخدمة مستوطنته هو اكتساب خبرة عملية في المجال الزراعي من خلال الحصول على دورات دراسية من الجامعة العبرية. ولكن رازين أصبح شغوفا بدراسة الاقتصاد، وبناء على توصية قوية من أحد المشرفين عليه حصل على منحة زمالة لإتمام دراسته العليا بجامعة شيكاغو ليصبح منذ ذلك الحين من دعاة اقتصاد السوق الحرة.

ويقول جوناثان أوستري، نائب مدير إدارة آسيا والمحيط الهادئ بصندوق النقد الدولي والذي عرف رازين منذ أن كان هو نفسه طالبا بالدراسات العليا في جامعة شيكاغو خلال الثمانينات، «يا لها من رحلة مدهشة من بلدة ماركسية صغيرة إلى شيكاغو الرأسمالية، ثم مسيرة مهنية حافلة بإنجازات هائلة لم تفقده تواضعه وحرصه على مساعدة الجميع». واشترك أوستري مع توم كروغر — وهو نائب مدير بصندوق النقد الدولي أيضا — في تأليف الدليل المصاحب لكتاب رازين الشهير الذي ألفه عام ١٩٨٧ بعنوان *Fiscal Policies and the World Economy*. ويقول أوستري «كان ذلك بمثابة دليل أساسي للدوائر الاقتصادية الدولية» لاستكشاف عالم سريع التغير يتسم بمرونة أسعار الصرف وزيادة التدفقات الرأسمالية. ويضيف قائلا إن العلاقات بين خيارات السياسات في مختلف البلدان كانت قد أصبحت «شديدة التعقيد»، «أما اليوم فيمكننا اللجوء إلى نماذج المحاكاة على أجهزة الكمبيوتر لفهم القنوات المعقدة التي بدت واضحة في عقل أساف وكتابه آنذاك».

البشائر والمخاطر

يمثل الكتاب الذي ألفه رازين مع جاكوب فرينكل (الذي شغل لاحقا منصب كبير الاقتصاديين بصندوق النقد الدولي) المحطة البارزة في مسيرة عمله: التعريف بالبشائر والمخاطر الناشئة عن العولمة التي هي عالم من البلدان المرتبطة ببعضها البعض ليس من خلال التجارة الدولية فحسب، ولكن أيضا من خلال تدفقات رأس المال والعمالة عبر الحدود الوطنية. ولرصد قنوات هذا العالم المتداخل، كثيرا ما اضطر رازين والمؤلفون المشاركون له إلى خوض مختلف مجالات الاقتصاد مما ساهم في إعلاء القيمة العملية للكتاب، حسبما أشار أتيش غوش، المؤرخ بصندوق النقد الدولي. ويضيف غوش قائلا «لا ترتبط قضايا السياسات بمجال اقتصادي واحد. ويبدو أن الموضوعات التي عمل عليها أساف والمؤلفون المشاركون له في عقد سابق أصبحت من قضايا السياسات ذات الأولوية في العقود التالية».

وبالتعاون مع إلهانان هيلبمان (الأستاذ بجامعة تل أبيب آنذاك وبجامعة هارفارد حاليا)، درس رازين أثر التدفقات الرأسمالية على أنماط التجارة الدولية. ويصف هيلبمان كتابهما الصادر عام ١٩٧٨ بعنوان *A Theory of International Trade under Uncertainty* بأنه محاولة مبكرة لكسر الحاجز بين دراسة التجارة الدولية (باعتبارها أحد فروع الاقتصاد الجزئي) وحركة رأس المال (في إطار الاقتصاد الكلي)، ويقول «لم يكن من المنطقي التفكير بمعزل عن التجارة والاقتصاد الكلي». ويتضمن الكتاب معالجة متكاملة للمجالين، ويوضح أن زيادة تقاسم المخاطر بين البلدان بسبب حرية حركة رأس المال أدت إلى زيادة التخصص في مجال التجارة، مما ساهم في تحسين الإنتاجية. ولكن زيادة الاعتماد المتبادل نتيجة زيادة التخصص جعلت البلدان أكثر عرضة للمخاطر الناجمة عن اضطرابات النظام العالمي — نتيجة الأزمات المالية أو التقلبات السياسية في البلدان الكبرى. واستفاض رازين في دراسة هذا الموضوع بالتعاون مع مؤلفين آخرين في أعمال لاحقة اختبرت آراء الاقتصاديين حول نفعية بعض التدفقات الرأسمالية، كالاستثمارات الأجنبية المباشرة، مقارنة بغيرها، مثل «رؤوس الأموال الجوالة» (تدفقات الحافظة قصيرة الأجل).

وخلال الثمانينات، أثبتت البحوث التي أجراها رازين بالتعاون مع فرينكل أن خيارات السياسات النقدية والمالية العامة لبلد ما في عالمنا المتداخل قد تؤثر على خيارات السياسات في البلدان الأخرى بل تقيدها — وهو ما يُطلق عليه «تداعيات» السياسات بلغة الاقتصاديين في العصر الحالي. وتحرص الحكومات الوطنية على حماية

استقلاليتها في فرض الضرائب والإنفاق، ولكن الاستفادة من منافع العولمة تفرض عليها التنازل عن جزء من هذه السيادة الثمينة. ويقول غوش «إن تسليط الضوء على ضرورة تنسيق سياسات المالية العامة في عالم يتسم بحرية انتقال رأس المال يعد مساهمة كبيرة»، مشيرا إلى تأثير هذا الموضوع على العديد من المناقشات حول مختلف السياسات. ويعد ذلك بالفعل من المشكلات التي تواجه بلدان الاتحاد الأوروبي حاليا في معرض سعيها إلى الاتفاق على مجموعة من قواعد المالية العامة التي ستحل محل القواعد الحالية بمجرد دمج اقتصاداتها ضمن سوق رأسمالية موحدة.

الحساب الجاري والحساب الرأسمالي

عمل رازين في التسعينات على دراسة التفاعل بين رأس المال وحركة العمالة من ناحية، والضرائب ونظم الرعاية من ناحية أخرى، وأنجز جانبا كبيرا من هذا العمل بالتعاون مع إفرايم صدقة، وهو زميل آخر في تل أبيب. وفي حين أن حرية حركة رأس المال قد تكون مفيدة للبلدان، فإن الرغبة في جذب رأس المال الأجنبي من خلال تخفيض الضرائب يمكن أن تقود إلى «سباق نحو القاع»، كما يمكن أن يحول تراجع الإيرادات الضريبية دون قيام الحكومات بتقديم الخدمات العامة التي تحتاجها مجتمعاتها. وفي الوقت الحالي، تتنافس البلدان على رأس المال من خلال التخفيف الضريبي الذي يؤدي إلى نضوب مواردها العامة، ويشكك الكثيرون بالتالي في مدى أهمية رأس المال الأجنبي للمصلحة العامة، مما لفت الأنظار إلى أهمية الدراسات التي أجراها رازين في وقت مبكر حول هذا الموضوع.

وعمل رازين على دراسة تكلفة التدفقات الرأسمالية ومنافعها، مما جعله من الزوار المرحب بهم في صندوق النقد الدولي خلال التسعينات. فعقب «أزمة التكيلا» المكسيكية عام ١٩٩٤، كانت هناك مخاوف من احتمالية تعرض بلدان أخرى للخطر. وفي السابق، اعتمد الاقتصاديون على قواعد بسيطة لقياس درجة التعرض للمخاطر، كتجاوز عجز الحساب الجاري (المرتبط بالعجز التجاري) ٥–٦٪ من الدخل القومي. ولكن في ظل الإقبال على الاستفادة من رؤوس الأموال الأجنبية، بدا من الممكن أن تسجل البلدان عجزا أعلى في الحساب الجاري ما دامت تتمتع بثقة المستثمرين الأجانب.

كذلك عمل رازين مع جيان ماريا ميليسي–فيريتي، الذي تقاعد مؤخرا من منصبه كنائب مدير إدارة البحوث بصندوق النقد الدولي، لفهم احتمالات الانعكاسات المفاجئة في عجز الحساب الجاري وتوقيتها، حيث قاما بتحليل بعض العوامل مثل انخفاض احتياطيات النقد الأجنبي أو تدهور معدلات التبادل التجاري — كما أجرى رازين دراسات رائدة بالتعاون مع لارس سفينسون لفهم الأسس الجزئية للعلاقة بين التغيرات في معدلات التبادل التجاري والحساب الجاري في ظل حرية حركة رأس المال. ويقول رازين «تناقشت كثيرا مع ستان فيشر [الذي كان يشغل منصب النائب الأول لمدير عام صندوق النقد الدولي آنذاك] الذي أدرك مدى صعوبة التنبؤ الدقيق بتوقيت الانعكاس المفاجئ ووقوع الأزمة في بعض البلدان بالرغم من الأفكار الكثيرة التي تضمنتها دراساتي النظرية وحرص جيان ماريا الشديد في التعامل مع البيانات». وبالفعل، كان من الصعب التنبؤ بتوقيت انعكاس مسار الحساب الجاري في بعض الاقتصادات الآسيوية خلال الفترة ١٩٩٧–١٩٩٨، ولا يزال يصعب حتى الآن التوصل إلى نظام إنذار مبكر موثوق.

وكانت بحوث رازين بمثابة إنذار مبكر بخطورة التفاعل بين حرية حركة العمالة ونظم الرعاية، وهي من القضايا المهمة حاليا في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا حيث غالبا ما يتهم الشعبويون المهاجرين بالمفاضلة بين نظم الرعاية في مختلف البلدان — لاستغلال الدعم السخي في بلدان المقصد.

مأساة وسط الانتصارات

وعلى خلفية هذا النشاط البحثي المتميز والمشاركات المكثفة في قضايا السياسات، تعرض رازين لمأساة شخصية أخرى، حيث توفى نجله أوفير عام ١٩٩٦ في سن صغيرة عندما كان في الثلاثين من عمره بعد معركة باسلة مع مرض التصلب المتعدد التقدمي. وقد امتلك أوفير إصرار والده، حيث نجح قبل وفاته في إتمام رسالة الدكتوراة في الاقتصاد بجامعة جورج تاون. ويقول رازين إنه لم يتوقف عن البكاء خلال رحلة طويلة بالطائرة إلى واشنطن العاصمة عقب تلقيه الخبر، ولكنه حاول ألا «يلفت إليه الأنظار» لكيلا يسبب ضيقا للآخرين.

وتكريما لذكرى أوفير، أطلق رازين جائزة أفضل ورقة بحثية مقدمة من طلاب الدراسات العليا بقسم الاقتصاد بجامعة جورج تاون وسلسلة محاضرات تحدث فيها بنفسه هو ونجله روني (الذي يعمل حاليا أستاذا بكلية لندن للاقتصاد). وضمت السلسلة مجموعة محاضرين من صفوة الاقتصاديين شملت ستانلي فيشر وسيسيليا روس وجيف ساكس وداني رودريك وبول كروغمان الحائز على جائزة نوبل والذي وصف هذا الحدث السنوي بأنه «تجمع عائلي» كبير لمحبي رازين.

وفي عام ٢٠٠١، اجتذب احتفال رازين بعيد ميلاده الستين مجموعة من الاقتصاديين الدوليين الرواد إلى تل أبيب — بما في ذلك كروغمان وآن كروغر (التي شغلت في السابق منصب النائب الأول لمدير عام صندوق النقد الدولي). ولصرف الحاضرين عن إغداق كلمات الثناء عليه خلال الحفل، قال رازين مازحا إنه كان يتمنى وجود أبويه إلى جانبه: «كان أبي ليحب سماع كلمات الثناء تلك، وكانت أمي لتصدقها». وأشار إلى أنه لا يعتزم التقاعد، ولكنه

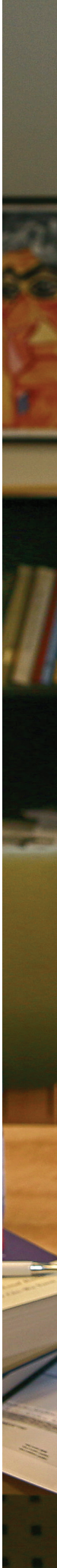

يقضي «فترة استراحة رائعة بين الفصول الدراسية». ولم يخلف وعده، حيث استمر في العمل بنشاط طيلة العشرين عاما الماضية، ودرس لطلاب الدراسات العليا في جامعة كورنيل (وتقاعد عام ٢٠١٦)، وواصل بحوثه، ونشر عدة كتب، بما في ذلك دراسة تحليلية نالت استحسانا واسعا حول كيفية نجاح إسرائيل في تحقيق الاستفادة القصوى من العولمة.

ويتابع رازين عن كثب التطورات الاقتصادية في إسرائيل طوال العقود السابقة ويتناولها في كتاباته، وجمع أفكاره في كتاب صدر عام ٢٠١٨ بعنوان *Israel and the World Economy*. وقد أثنى فيليب سويجل، مدير مكتب الموازنة في الكونغرس الأمريكي ومن الباحثين المتعاونين مع رازين، على التناول الواضح في الكتاب للأسباب التي أدت إلى تعرض البلدان الأخرى إلى «مشكلات في عصر العولمة رغم النجاحات التي شهدتها إسرائيل». فعلى عكس العديد من البلدان الأخرى، استطاعت إسرائيل جذب تدفقات رأسمالية أجنبية كبيرة تجاه الصناعة التي يعتمد عليها نموها — الشركات المبتدئة في قطاع التكنولوجيا المتطورة. كذلك استقبلت إسرائيل مليون مهاجر — حوالي ٢٠٪ من سكانها — من الاتحاد السوفييتي السابق في التسعينات على نحو ساهم في دعم قطاع التكنولوجيا المتطورة والنمو ككل. ويشير سويجل أيضا إلى «صراحة رازين بشأن المساوئ المحتملة» للعولمة، بما في ذلك تنامي مستويات عدم المساواة داخل إسرائيل — وهي الأعلى على الإطلاق في العالم المتقدم.

أسرار النجاح

أتم رازين الثمانين من عمره هذا العام، ويحتفل بهذه المناسبة كعادته بإصدار كتاب جديد عن كيفية إعادة العولمة إلى مسارها الصحيح عقب انتكاساتها نتيجة التيار الشعبوي والجائحة. وخلال مقابلة مع مجلة التمويل والتنمية، نسب نجاح مسيرته المهنية إلى «حظه السعيد الذي أحاطه بأشخاص رائعين ... وهداه إلى اكتشاف ميزته النسبية والتمسك بها». وفي شيكاغو، كان من بين أساتذته عدد ممن فازوا بجائزة نوبل لاحقا مثل ميلتون فريدمان وروبرت ماندل، وأصبحت لزملائه لاحقا مكانة بارزة على الصعيد المالي الدولي، مثل رودي دورنبوش وفرينكل ومايكل موسى، وشغل الأخيران منصب كبير الاقتصاديين في صندوق النقد الدولي لاحقا. وفي جامعة مينيسوتا، يقول رازين إن مهمته الأولى بعد التخرج كانت «تعلم التوازن العام» — نظرا لأنه لم يكن يُدرَس في شيكاغو — من أرقى العقول». ويُقصد بالتوازن العام دراسة التفاعلات بين مختلف القطاعات المكونة للاقتصاد، وهو ما يفضي غالبا إلى أفكار وحقائق عميقة لا تتأتى من دراسة آليات كل قطاع على حدة («التوازن الجزئي»). وتعلم رازين من كروغر، الذي عمل بالتدريس في جامعة مينيسوتا أيضا آنذاك وجمعته برازين «صداقة طويلة وعلاقة مؤثرة»، أهمية التطابق بين النظريات والبيانات.

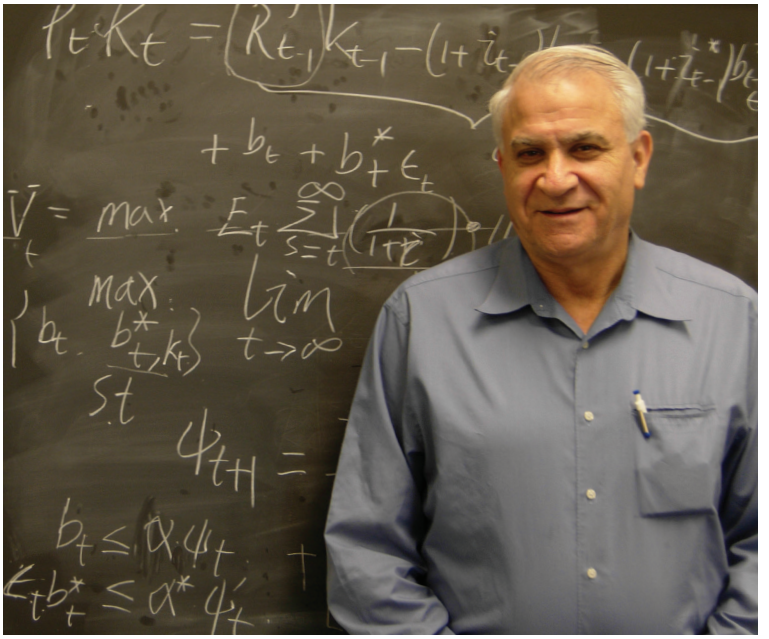

أساف رازين في قاعة المحاضرات عام ٢٠٠٩.

وكان شغله لوظائف أخرى لفترات من حياته قد رسخ لديه الاقتناع بأن المجال الأكاديمي هو الأنسب له. فقد تولى وظائف إدارية من وقت لآخر في جامعة تل أبيب، ولكنه «لم يجد نفسه فيها مطلقا» كما يقول. ولم يبرع في الوظائف الحكومية أيضا. ففي عام ١٩٧٩، تم تعيينه في منصب كبير في وزارة الخزانة الإسرائيلية. وكانت الحكومة تشهد حقبة من الإنفاق المبالغ فيه أدت إلى زيادة التضخم الذي كاد أن يبلغ مستويات مفرطة في إسرائيل. وأطلق رازين تحذيراته على الملأ داعيا إلى ضرورة تحويل مسار السياسات، مما أدى إلى عزله بعد ستة أشهر من توليه المنصب. ويقول رازين «كان الأمر أشبه باضطرار مارتي [مارتن فيلدشتاين] إلى ترك وظيفته في إدارة ريغان عندما حذر من مخاطر العجز». وأقنعته هذه الفترة الوجيزة من العمل الحكومي بأن «ميزته النسبية تكمن في الحياة الأكاديمية».

ورغم بقائه خارج مجال العمل الحكومي، استمر في التعليق على التطورات التي تشهدها إسرائيل. ويجد نفسه «منشغلا دائما» بفرص السلام بين إسرائيل والبلدان المجاورة لها. وهو متصالح مع فكرة «أن السلام ربما لن يجد سبيله إلى التحقق خلال حياته، ولكن في حياة أبنائه وأحفاده». ولكنه يحث على ضرورة عدم التخلي عن الأمل في عالم أفضل رغم مثالية الفكرة، مستشهدا بالبيت الأخير في قصيدة من تأليف حفيده «مملكة اليوتوبيا أمل دفين في عالم بلا قلب». FD

براكاش لونغاني المدير المساعد لمكتب التقييم المستقل بصندوق النقد الدولي.

الصورة: مهداة من أساف رازين